أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

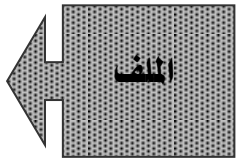

العلاقات بين الأئمة في العصور الإسلامية الاولى

عندما نستعرض استراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية نجد ان هذا المجمع من بين تطلعاته يتطلع الى مايلي:

١- السعي الى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الاسلامي المعاصر اقرب ما يكون الى ظروف ووضع عصر الرسول الاكرم(ص) من حيث التأسي بجوانب الاخوة الدينية، والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين اتباع المذاهب الاسلامية.

٢- اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الاسلامية بعضهم مع البعض الآخر.

ومن هنا رغبنا في استعراض بعض أنماط التعامل المشار اليها.

انطلاقاً من قوله(ص): خير القرون قرني الذي انا فيه...»[1]. اولاً، وثانياً من التحذير القرآني من اخطار الابتعاد عن أجواء عصر الرسول التي تتلخص في (قسوة القلوب) التي اصابت بعض اهل الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

ولقد كان امير المؤمنين علي(ع) يذكّر قومه – وهم الاقرب إلى عصر الرسول – بالحالة الحماسية التي كان عليها الصحابة (رض) ويقارنها بالحالة التي كان عليها اصحابه فيرى بوناً شاسعاً فيقول:

«ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله؛ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا: ما يزيدنا ذلك الا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الالم، وَجداً في جهاد العدو؛ .. فلما راى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وانزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام مُلقياً جرانه ومتبوئاً أوطانه. ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا اخضر للايمان عود»[٣].

وهذا زين العابدين علي بن الحسين(ع) يتحدث عنهم فيقول: «اللهم واصحاب محمد خاصة، الذين احسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه، واسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث اسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في اظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به. اللهم واوصل إلى التابعين لهم باحسان – الذين يقولون «ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان» خير جزائك»[٤].

ولكنا في مقالنا هذا سوف نركز على عصر الامام الصادق، فما بعده باعتباره عصر نشوء المذاهب الفقهية المعروفة لنلاحظ الحالة العقلانية التي أوجدها الإسلام والتي تجلت في الحوار البناء، والقبول بالتعددية الفكرية، واحترام الآراء، والاعتراف بفضل الاساتذة والسابقين، الأمر الذي انتج تراثاً فكرياً حضارياً، فيه من الغنى الشيء الكثير.

نظرة الأئمة إلى بعضهم البعض

ونكتفي هنا بذكر بعض النماذج:

١ــ ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة أن الامام احمد بن حنبل علق على الحديث القدسي الذي رواه الامام الرضا عن آبائه باسمائهم (ع) عن رسول الله(ص) عن جبرئيل عن الله (ولذا سمي بحديث سلسلة الذهب) فقال – اي الامام مالك – ما نصه: «لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته»[٥].

٢– روى الشيخ الصدوق – وهو من اعاظم علماء الامامية عن الامام مالك بن أنس قوله: «كنت ادخل على الصادق جعفر بن محمد فيقدم لي مخدّة ويقول: يا مالك، إني احبك، فكنت أسر بذلك، واحمد الله عليه، وكان لا يخلو من احدى ثلاث خصال: إما صائماً وإما قائماً واما ذاكراً. وكان من عظماء العباد، واكابر الزهاد الذين يخشون الله (عزوجل)، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد فإذا قال: «قال رسول الله(ص)» أخضرّ مرة، واصفر اخرى، حتى ينكره من يعرفه، ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الاحرام كان كلما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد يخر من راحلته. فقلت: قل يا ابن رسول الله فلابد من أن تقول فقال: يا ابن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول: لبيك اللهم لبيك واخشى أن يقول عزوجل [لي]: لا لبيك ولا سعديك»[٦] وهو القائل: ما رأت عين ولاسمعت اذن ولاحظر على قلب بشر افضل من جعفر الصادق فضلا وعلماً وعبادة وورعاً.

٣– وقال الامام ابو حنيفة عن الامام الصادق: ما رأيت افقه من جعفر بن محمد.

٤– وقال – يتحدث عن تتلمذه على يديه: (لولا السنتان لهلك النعمان).[٧] يقول الامام السمهودي: «كان الامام الاعظم ابو حنيفة رحمه الله من المتمسكين بولايتهم، والمتنسكين بودادهم، وكان يأمر اصحابه... بالاقتداء بانوارهم.[٨]

٥- وشعر الامام الشافعي في اهل البيت معروف مشهور. وقد علق الامام الرازي على ذلك بقوله: «واما مدح علي وحبه والميل اليه فذلك لايوجب القدح بل يوجب اعظم انواع المدح.»

٦- وروى عنوان البصري أنه (كان يختلف إلى الامام الصادق يتعلم عليه فغاب الامام عن المدينة (او انشغل) فنصحه الامام أن يختلف إلى مالك)[٩].

٧- يقول الاستاذ عبدالحليم الجندي «ولئن كان مجداً لمالك أن يكون اكبر أشياخ الشافعي، أو مجداً للشافعي ان يكون اكبر اساتذة ابن حنبل، أو مجداً للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين، إن التلمذة للامام الصادق قد سربلت فقه المذاهب الاربعة لأهل السنة.

لقد يجئ للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة الذي لم يضحك ابو حنيفة طول حياته بعد ان قال له عمرو اذ ضحك مرة في إبان مناظرته: يا فتى، تتكلم في مسألة من مسائل العلم وتضحك؟! (يلاحظ ذيل تاريخ بغداد للدمياطي ، ج٢، ص٥٠) والذي يبلغ من وقاره أن يراه الرائي فيحسبه اقبل من دفن والديه! فاذا انتهى الكلام قال عمرو للامام: «هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم» (البحار، ج ٤٧، ص ١٩).

ويجيء امام خراسان عبدالله بن المبارك، وهو امام فقه، وبطل معارك تلمذ للامام زماناً ولأبي حنيفة، فتعلم ما جعله يخفي بطولاته في الفتوح.. وفي الامام جعفر شعره الذي ورد فيه:

انت يا جعفر فوق المدح، والمدح عناء
انما الاشراف ارض ولهم انت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الانبياء»[١٠]

٨- يقول ابن ابي حازم: «كنت عند جعفر الصادق يوماً واذا بسفيان الثوري بالباب فقال: ايذن لي، فدخل، فقال له جعفر: انك رجل يطلبك السلطان في بعض الاحيان، ونحضر عنده، وانا اتقي السلطان. فاخرج عني غير مطرود. قال سفيان: حدثني حديثاً اسمعه وأقوم. قال الامام: حدثني ابي، عن جدي عن ابيه عن رسول الله(ص): «من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل: لا حول ولا قوة الا بالله»[١١].

٩- وقد اشتهر عن أئمة المذاهب القول بحرية الاجتهاد، وعدم تقليد المجتهدين لغيرهم من المجتهدين مثلهم:

فهذا الامام ابو حنيفة يقول: «اذا صح الحديث فهو مذهبي»[١٢].

ويقول: «هذا راى النعمان بن ثابت -٠ يعني نفسه – وهو احسن[١٣] ما رايت فمن جاء باحسن منه فهو أولى بالصواب»[١٤].

وهذا الامام مالك يقول: «إنما انا بشر اخطئ واصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[١٥].

ويقول الامام احمد بن حنبل:

«راي الاوزاعي وراى مالك ، وراي ابي حنيفة كله راي وهو عندي سواء، وانما الحجة في الآثار»[١٦].

ويقول الامام الصادق(ع) وهو استاذ الائمة : «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة»[١٧].

وهكذا نجد التعامل الايجابي البناء بين القادة:

– احترام يصل إلى حد التكريم الرفيع، بحيث يعتبر أحدهم قراءة اسناد فيه اسماء الأئمة على مجنون كافياً لبرئه من جنته.

- وعبارات المودة والمحبة سائدة رغم النقد العلمي احياناً،
- وانبهار واحترام يفوق الوصف،
- وارجاع من امام إلى امام،
- واعتراف بالفضل والعلم بأروع التعابير،
- وإلحاح على التعلم رغم الوضع السياسي الحرج،
- واخيراً عدم الاصرار على الرأي، ورد للمنقول عنهم اذا لم يوافق الكتاب والسنة.
- وحرية في الاجتهاد وقبول بالتعددية وانفتاح على الآخر، فهل يا ترى تقتضي العقلانية غير ذلك؟ وهل احتفظ اتباع الأئمة بمثل هذه الروح بعد ذلك؟!

وصايا إلى الاتباع

وأزاء هذا التعامل الجميل بين الأئمة نلاحظ الوصايا التي تترى منهم لاتباعهم، كي يتعاملوا بنفس الروح التسامحية، ويتجاوزوا الخلافات الفرعية في العقيدة والتقييم التاريخي والفقه إلى الموقف المبدئي والتحاب ووحدة الموقف، والتعالي إلى المستويات المصلحية العليا. فلنلاحظ بعض النصوص كما يلي:

١- ذكر التاريخ ان عبدالله بن احمد بن حنبل روى ان قوماً من الكرخيين ذكروا خلافة الخلفاء الراشدين (وربما تنازعوا فيما بينهم) فقال: الامام احمد ناهياً اياهم عن هذه النزاعات الجانبية العقيمة:

«يا هؤلاء أكثرتم القول في علي والخلافة، والخلافة وعلي؛ ان الخلافة لم تزين علياً، بل علي زينها»[١٨].

٢- وقد طرد الشيخ الحسين بن الروح احد النواب الاربعة للامام الثاني عشر

المهدي(ع) خادماً له لأنه سمعه يهين معاوية[١٩].

٣- واوصى الامام الصادق اصحابه فقال لهم: صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وادوا حقوقهم، فان الرجل منكم اذا ورع في دينه، وصدق الحديث وادى الامانة، وحسن خلقه مع الناس وقيل هذا جعفري، يسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر»[٢٠].

٤- روى ابن ابي يعفور قال: سمعت الصادق يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»[٢١].

٥- تذكر لنا الروايات أنه جرى ذكر قوم عند الامام الصادق فقال بعض شيعته: انا لنبرأ منهم، انهم لا يقولون ما نقول، فقال الامام: «يتولونا ولا يقولون ما تقولون، تبرأون منهم»؟ فاجاب الراوي: نعم قال: «هو ذا عندنا ماليس عندكم، فينبغي لنا ان نبرأ منكم»[٢٢].

٦- وعن الصادق: «من خلع جماعة المسلمين قدر شبر خلع ربقة الايمان من عنقه»[٢٣].

٧- وعن الباقر(ع) في قوله تعالى: (أو يلبسكم شيعاً)، قال: «وهو اختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض»[٢٤].

٨- وقال الصادق: «عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، واقامة الشهادة، وحضور الجنائز، انه لابد لكم من الناس، ان احداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لابد لبعضهم من بعض»[٢٥].

٩- معاوية بن وهب قال: قلت له (اي الصادق) كيف ينبغي ان نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وبين خلطائنا من الناس، ومن ليسوا على امرنا؟ فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم

ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الامانة اليهم»[٢٦].

٩- وقال الصادق(ع): «رحم الله عبداً اجترّ مودة الناس إلى نفسه فحدثهم بما يعرفون، وترك ما ينكرون»[٢٧].

١٠- وقال زين العابدين(ع): «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن العصبية ان يعين قومه على الظلم»[٢٨].

وهكذا نجد الأئمة يؤكدون على العلاقات الحسنة، والتعامل الايجابي، وعدم الغرق في نزاعات غير عملية، وعدم الاساءة والاهانة، والدخول في قلب العمل الاجتماعي، وعدم الاعتزال نتيجة الايمان برأي يخالف الأكثرية من الناس، والسعي للتأدب بأدب الأئمة، وعدم الغرور العلمي، وعدم جعل الاختلاف في الراي سبيلاً للتدابر، والدخول في جماعة المسلمين، واجتناب العصبية واجترار حب الناس وامثال ذلك.

الا أننا نجد الامة – بكل أسف – بعد ابتعادها عن هذه العصور الذهبية – اتجهت إلى الحالات الطائفية البغيضة.

الحالة الطائفية اللاعقلانية

نعم لم تستمر تلك الحالة النيرة كثيراً، فسرعان ما ساد التعصب والانغلاق، وتقليد المجتهدين لغيرهم «حتى آل بهم التعصب إلى ان أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة، نصرة لمذهبه ولقوله»[٢٩].

ونقل الفخر الرازي عن اكبر شيوخه انه قال: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون الي كالمتعجب – يعني كيف يمكن

العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت على خلافها- ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من اهل الدنيا»[٣٠].

وقد ذكر الشيخ أسد حيدر اقوالاً اخرى من هذا القبيل[٣١].وربما كان اغلاق باب الاجتهاد وحصر المذاهب نتيجة وعاملاً على المزيد من ذلك.

ولم يقتصر الامر على هذا الحد، وانما انتقل إلى مرحلة نقل الصراع من مرحلة (الخطأ والصواب) إلى مستوى (الكفر والايمان)، الأمر الذي نقل الخلاف إلى الجماهير العريضة، وتسبب في كوارث يشيب لها الوليد.

واشتد الهجوم على العلوم العقلية والمتعاطين بها سواء بين الشيعة[٣٢]. او السنة[٣٣].

وراحت التهم تطال المذاهب والآراء فتصفها بالهالكة، وانها مجوس الامة وامثال ذلك، وزاد الخلاف على الفرعيات والانشغال بها وهكذا[٣٤].

وزاد تدخل الحكام (وكانت البلاد قد تحولت إلى اقطاعيات كبيرة) الطين بلة ومع كل جائحة من عداوة وغضب، اسرفت تهم النبذ والتحريم والتكفير والرمي بالباطل ضد الآخر مقدمة للقتل واحراق الممتلكات واتلاف كتب أصحاب المذاهب ومؤلفات فقهائها ونشر الرعب والكراهية.

وفي تاريخ الجائحات تكررت همجية البطش مع كل سلطة جديدة مرة ضد الشيعة، ومرة ضد السنة.... [٣٥].

ولنا أن نراجع ما ذكره ياقوت من التقاتل بين اتباع المذاهب في مدينة (الري) [٣٦].

كما لنا ان نتذكر ان الصراع بين الصفويين والعثمانيين – وكل منهما يتمترس خلف خلفية مذهبية – دام اربعة قرون واورث الأمة خراباً ودماراً، وأضعفها أمام عدوها الغربي.

وسنكتفي بذكر نص للشيخ الطوفي من أئمة الحنابلة ذكره للاستدلال على مبدأ (المصالح المرسلة) مقدماً اياه على النصوص والاجماع، لأنه راى ان النصوص متعارضة،

والاجتهادات متضاربة، والاحاديث الموضوعة كثيرة. وفي هذا السياق يذكر بعض انماط الصراع في تلك العصور فيقول:

«ان المالكية استقلت في المغرب، والحنفية بالمشرق، فلا يقار احد المذهبين احداً من غيره في بلاده إلاّ على وجه ما. وحتى بلغنا أن اهل جيلان من الحنابلة اذا دخل اليهم حنفي قتلوه، وجعلوا ماله فيئاً، حكمهم في الكفار، وحتى بلغنا أن بعض بلاد ماوراء النهر من بلاد الحنفية كان فيه مسجد واحد للشافعية، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد فيقول: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ فلم يزل كذلك، حتى اصبح يوماً وقد سد باب ذلك المسجد بالطين واللبن فأعجب الوالي ذلك»[٣٧]. ولكن الأمة بوعي علمائها تخلصت من افرازات عصور النزاع هذه.

غير أننا في الآونة الاخيرة شهدنا عودة غريبة لهذه الحركة سببها عدو الامة القديم الجديد وهو الاستعمار والاستكبار العالمي، الذي يعيش باستمرار هاجس الصحوة الإسلامية، ويخاف منها على مصالحه الاستعمارية.

فهو في هذه الفترة الزمنية، وبعد أن مني بالهزائم المتتالية في نقاط متنوعة من العالم الاسلامي كافغانستان والعراق ولبنان وفلسطين والصومال، وبعد فشل مشاريعه الواحد تلو الآخر، راح يخطط لاحياء النعرات الطائفية، ويحسس رجال كل مذهب بضرورة الدفاع وتحريك الاشكال على الآخر.

ولا ريب أنه – وكما هو الحال دائماً – استفاد من ذوي التعصب وهواة التكفير ومن الجهلاء بالمصالح، وبعد ذلك من العملاء الذين نصبهم في المنطقة، ليصونوا له نفوذه، ويحققوا له مايطمح اليه، بل واستفاد من العدو الصهيوني الغادر ليحقق تنفيذاً واسعاً للخطة الطائفية، ويعطي النزاعات السياسية في الاصل بعداً طائفياً مقيتاً.

ويبقى أن ينتبه العلماء والعقلاء لهذا التآمر فيعملوا على افشاله والحد من آثاره، والله ولي التوفيق.

الهوامش:

١ – رواه البخاري ومسلم واحمد وغيرهم وجاء في بحار الانوار «وأخرجني في خير قرن من امتي» (ج ١٦ ص ٩٢).

٢ – الحديد/ ١٦.

٣ – نهج البلاغة، شرح صبحي الصالح، ص ٩٢.

٤ – الصحيفة السجادية: الدعاء الرابع.

٥ – الصواعق المحرقة: ص ٢٠٣.

٦ – الخصال للشيخ الصدوق، ج ١، ص ١٦٧. وفي تهذيب التهذيب ، ج ٢، ص ١٠٥ «اما مصل واما صائم، واما يقرأ القرآن وما رأيته يحدث عن رسول الله الا على الطهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله وما رايته قط الا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتي» وهناك مصادر اخرى لهذا الخبر.. وقد ذكر صاحب (روضات الجنات) ان هذا الخبر رواه العام والخاص (ج ٧ ص ٢١٤).

٧ – التحفة الاثنا عشرية للآلوسي: ص ٨ وغيره.

٨ – جواهر العقدين ق ٢ ج ١ ص ٣٣٥، الصواعق المحرقة لابن حجر، ص ١١٠.

٩ – البحار، ج ١، ص ٢٤٤و غيره.

١٠ – الامام جعفر الصادق، ص ٢٢٠.

١١ – بحار الانوار ، ج ٧٥، ص ٢٠١، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٦، ص ١١٧.

١٢ – حجة الله البالغة، ج ١، ص ٥٢.

١٣ – توالي التأسيس ، ص ١٠٩، طبعة ١٤٠٦هـ القاهرة.

١٤ – ن.م. ج ١، ص ١٥٢.

١٥ – الاحكام لابن حزم، ج ٦، ص ٧٩٠.

١٦ – الايقاظ للغلاف، ص ٢٨.

١٧ – وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٧٩.

١٨ – تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ، ص ١٠٩.

١٩ – بحار الانوار، ج ٥١، ص ٣٥٧.

٢٠ – عوالم الامام الصادق للبحراني، ج ٢، ص ٦٣٥.

٢١ – الكافي ، ج ٢، ص ١٠٥.

٢٢ – وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦٠.

٢٣ – بحار الانوار، ج ٨٥، ص ١٣.

٢٤ – تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٤٩.

٢٥ – وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٦.

٢٦ – وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٦.

٢٧ – وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٧١.

٢٨ – الكافي، ج ٢، ص ٣٠٨.

٢٩ – مختصر المؤمل لشهاب الدين ابي شامة، ص ١٤.

٣٠ – التفسير الكبير، ج ١٦، ص ٣١ في تفسير الآية ٣١، من سورة التوبة .

٣١ – الامام الصادق والمذاهب الاربعة طبعة مجمع اهل البيت، ج ٣، ص ١٩٢ .

٣٢ – راجع كتاب (المعالم الجديدة لعلم الاصول) للامام السيد محمد باقر الصدر .

٣٣ – راجع مقال الاستاذ الطويل في كتاب قضية الفلسفة، ص ٢١١.

٣٤ – راجع كتاب (قصة الطوائف) للدكتور الانصاري، فصل الحقبة الطائفية، ص ١٨٥.

٣٥ – ن.م. ص ٢١٩.

٣٦ –معجم البلدان: مادة (ري).

٣٧ – رسالة الطوفي، ص ١١٦.